سيبويه في الميزان

للدكتور احمد مكى الأنصارى

قبل أن أخوض فى هذا الحديث المستفيض أبادر فأضع بين يديكم مبدأ راسخا .. ينبغى ألا نحيد عنه فى دراساتنا لسيبويه العظيم .. ذلك المبدأ هو :

يجب أن نقدر سيبويه كل التقدير .. ولكن ينبغى ألا نقدسه أى تقديس .. وفرق كبير بين التقدير والتقديس .

ذلكم هو المبدأ .. وهذا هو المنطلق الذى ننطلق منه ، فى رحلتنا الطويلة مع سيبويه .. وأظنكم توافقوننى على أن تقديس الأشخاص حرام .. حرام قطعا ، شرعا وقانونا ونحوا وصرفا .

والآن نبدأ فى وزن سيبويه .. وأشهد أننى لم أجد ميزانا واحدا يتسع لوزن سيبويه الضخم العملاق . وكيف تتسع له الموازين وقد طبقت شهرته الآفاق .. شرقا وغربا ، عربا وعجما . فكان ملء السمع والبصر والفؤاد .. فى القديم وفى الحديث على السواء .

إن سمعة سيبويه العبقرى تغزو الآن أوربا .. حتى أن كتابه الفريد يترجم إلى بعض اللغات الحية مثل اللغة الألمانية ، والإسبانية .. وغيرهما من اللغات .

وقديما أنصفوه فأطلقوا عليه (إمام النحاة) .. كما أنهم بالغوا فى تقدير كتابه فقالوا : (إنه قرآن النحو) ، وحسبه ذلك تمجيدا وتقديرا . ومن هنا يجد الباحث نفسه أمام عمل ضخم حينما يحاول جاهدا أن يضع (سيبويه فى الميزان) . وأشهد أن عبقرية سيبويه تجلت فى كتابه الخالد .. فهو كنز هائل ، ومنبع ثرّ ، كأنه بحر زاخر يمده من بعده سبعة أبحر .. فيه من الجوانب الحية النابضة مايدعو الباحثين إلى التعمق فيها ، وهى ماتزال أبكارا ، عربا أترابا . تنتظر الباحثين فى كثير من الميادين ، مثل الأصوات ، واللهجات ، والبلاغة ، والنقد .. بالإضافة إلى النحو والصرف واللغة بوجه عام .. وإليك بعض العناوين لتكون بين يديك بمثابة دليل أو معين .

١ – سيبويه والأصوات : فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة .

٢ – سيبويه واللهجات :

٣ – شواهد سيبويه على محك النقد – (ومن ورائها الشواهد النحوية بوجه عام) .

٤ — التداخل بين البلاغة والنحو فى كتاب سيبويه :

٥ — كتاب سيبويه بين النقل والابتكار.

٦ — القضايا النحوية بين سيبويه والمبرد.

٧ — أخطاء سيبويه فى نظر ابن تيمية.

٨ — مشكلات ابن الضائع فى كتاب سيبويه :

٩ — مآخذ الأخفش على الكتاب .

١٠ — ظاهرة التأويل فى كتاب سيبويه.

١١ — وأخيرا وليس آخرا (سيبويه والقراءات) :

كل هذه الموضوعات أو جلها وغيرها كثير وكثير ... ماتزال تنتظر البحث .. ومن خلال هذا البحث والدرس العميق نستطيع أن نزن سيبويه وزنا دقيقا ، لنعرف حجمه الطبيعى دون تهويل أو تهوين .. ثم نضعه فى المكان اللائق به.. وما أحسبه إلا فى عنان السماء : بين السماكين أو الفرقدين. وكم كنا نود أن نزن سيبويه من جميع النواحى ، ولكن أنى لنا ذلك. والجهد قاصر ، والقضايا متعددة الجوانب . لهذا وذاك سنقصر حديثنا الآن على قضية واحدة ، فقط وهى (موقف سيبويه من القراءات) — وقديما قالوا : « مالا يدرك كله لايترك كله » ، « وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق » . وإليك البيان :

القضية الكبرى :

هى : موقف سيبويه من ، القراءات القرآنية .. ومنها تتفرع سائر القضايا الأخرى وهى :

١ — قضية المعارضة الصريحة للقراءات عند سيبويه :

٢ — قضية المعارضة الخفية للقراءات عند سيبويه .

٣ — قضية التأويل للآيات القرآنية عند معارضتها للقواعد النحوية .

٤ — قضية موافقة الكتاب للكتاب ، والمراد بها موافقة كتاب سيبويه لكتاب الله العزيز .

مسالك التفكير عند سيبويه :

يخيل إلى أن مسالك التفكير عند سيبويه كانت على النحو التالى :

إن سيبويه — رحمه الله — وضع القواعد النحوية فى كفة ، ووضع الآيات القرآنية فى كفة أخرى ، ثم نظر فى الآيات القرآنية فما كان منها موافقا للقواعد البصرية .. تقبله بقبول حسن ، واستشهد به فى الكتاب وتلك هى القضية الرابعة التى أشرنا إليها آنفا (موافقة الكتاب للكتاب). أما ماتعارض من الآيات مع القواعد النحوية البصرية .. فوقف منه مواقف ثلاثة .. تتجلى فيمايلى :

قسم منها استطاع أن يخضعه للتأويل والتقدير .. ليتفق مع القواعد البصرية

وتلك هي القضية الثالثة (قضية التأويل للآيات ، وإخضاعها للقواعد) .

أما الباقي من الآيات المتعارضة للقواعد البصرية .. فإنها تأبى الخضوع للتأويل والتقدير :

وحينما استعصت على سيبويه وقف منها موقف المعارضة القوية ورماها بالضعف ، والقبح والرداءة .. لالشيء إلا لأنها خالفت القواعد البصرية .. وكأن القواعد النحوية مقدسة أكثر من الآيات القرآنية.

ومهما يكن من أمر فإن المعارضة القوية كان لها مظهران عند سيبويه :

المظهر الأول : هي المعارضة الخفية .. وذلك حينما يضع القاعدة النحوية التي تصطدم بالآية اصطداما عنيفا دون أن يذكر نص الآية بصراحة .. وإن كان يذكر كل ماينطبق عليها ، ويحددها تمام التحديد. وعندما تصل الأمور إلى هذا الحد يستوى فيها التصريح والتلميح : والمظهر الآخر هو المعارضة الصريحة .. وذلك عندما يفلت منه الزمام .. فيذكر نص الآية بصراحة ويذكر معها بعض الصفات التي لا تليق .. كما سيأتي بالتفصيل عما قليل . ولعلك تلحظ أن المعارضة الصريحة ، والمعارضة الخفية ، هما وجهان لعملة واحدة : يتعامل بها سيبويه مع القراءات التي لا تتفق مع المذهب البصري ، ولايستطيع إخضاعها للتأويل والتقدير يروها ؛ لأن القضية الأولى والثانية من القضايا الأربع التي تشتمل عليها القضية الكبرى ، وهي (موقف سيبويه من القراءات) .

وإليكم بعض النماذج

أولا : نماذج من المعارضة الصريحة[1] :

قال تعالى في سورة الجاثية[2] : «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءٌ محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون» : جاءت القراءة بنصب كلمة (سواء) ويرفعها كذلك ، وكلتاها قراءة سبعية ، ولكن سيبويه يأخذ ما يروق له . وهي قراءة الرفع .. ثم يهاجم قراءة النصب ويصفها بالقبح والرداءة [3] مع أنها قراءة سبعية كما ترى .. قرأ بها أكثر من قارئ في السبعية . قرأ بها حفص وحمزة والكسائي : وتوجيهها في النحو سهل ميسور .. فإنها تعرب حالا ، أو مفعولا ثانيا لنجعلهم ، أي نجعلهم سواءً في المحيا وفي الممات .. إلى غير ذلك من الأعاريب التي ذكرها العلماء بالتفصيل ،

---

(١) انظر تفصيل كل ذلك في كتابنا (سيبوية والقراءات) ص ١٦ فما بعدها ، توزيع دار المعارف بمصر

(٢) آية : ٢١

(٣) راجع الكتاب ١ : ٢٣٣ ط بولاق

ولكنها لا تتفق مع مذهب سيبويه .. ولهذا وصفها بالقبح والرداءة سامحه الله . وهناك آية أخرى ينطبق عليها وصف سيبويه بالقبح والرداءة ، وهى قوله تعالى : «سواء العاكف فيهوالباد» وهى قرءةسبعية أيضا[1]. ولكن سيبويه لايحفل بالقراءة السبعية أوغيرها من القراءات . إذا ما اختلفت مع القواعد النحوية البصرية بالذات .

ومن النماذج أيضا قراءة آية أخرى وصفها سيبويه بالضعف والقبح معا [2] وهى قوله تعالى : «ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن» بضم كلمة (أحسن) على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير : تماما على الذى هو أحسن — مثل هذا جائز مستساغ ، لا غبار عليه عند غير سيبويه ومن لف لفه من البصريين والمتبصرين .. أولئك الذين هاجموا هذه القراءة ورموها بالضعف والقبح والشذوذ .. ومن كان منهم معتدلا بعض الاعتدال وصفها بالقلة والندور [3]

وإن أردت المزيد من النماذج فعليك بكتاب (سيبويه والقراءات)[4] ففيه بعض الآيات التى عارضها سيبويه معارضة صريحة ، ومنها قوله تعالى : «وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين» فى قراءة أبى عمرو بن العلاء بالإبدال — والمراد إبدال الهمزة ياء فى (ائتنا) وكان حقها أن تبدل واوا فى نظر سيبويه؛ لأن ما قبلها مضموم .. فلمالم تجئ على القاعدة البصرية رماها بالضعف — سامحه الله .

ثانيا : من نماذج المعارضة الخفية[5] :

(أ) قال تعالى فى سورة يس : «إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون»[6] قرأبنصب المضارع (يكون) قارئان كبيران من القراء السبعة .. هما الكسائى وابن عامر — وتكررت قراءة النصب فى هذا الحرف من القرآن حين جاء فى سورة النحل كذلك عندهما معا — كما أن ابن عامر قرأ بالنصب فى جميع المواضع الأخرى التى ورد فيها هذا الحرف من القرآن الكريم ،باستثناء،موضعين اثنين ومع هذه الكثرة الكاثرة من الآيات القرآنية المنصوبة .. ومع التوثيق الكامل لقراءة الكسائى وابن عامر فإن سيبويه رحمه الله يقرر ضعف النصب هذه الحال [7] .

---

(١) راجع كتاب (سيبويه والقراءات) ص ٢٣

(٢) انظر الكتاب ١ - ٢٧٠ ط بولاق

(٣) راجع شراح الألفية فى باب الموصول عند قول ابن مالك :

(وبعضهم أعرب مطلقا وفى . . . ذا الحذف أيا غير أى يقتفى)

(ان يستطل وصل وان لم يستطل . . . فالحذف نزر وأبوا أن يختزل)

(٤) ص ٢٥ فما بعدها - (٥) راجع تفصيل كل ذلك فى كتاب (سيبويه والقراءات) ص ٤٦ فما بعدها

(٦) آية - ٨٢ (٧) راجع الكتاب ١ - ٤٢٣ ط بولاق

لا لشيء إلا لأنها لاتتفق مع القاعدةالنحوية التي وضعوها بأيديهم في مصنع التقعيد — وخلاصة القاعدة عندهم أن الفعل المضارع لا ينصب بعد الفاء إلا إذا كان جوابا .

هذه هي القاعدة الناقصة التي أحاطوها بالتقديس أكثر من القراءات القرآنية المحكمة؛ماذا عليهم لو نسفوا هذه القاعدة من أساسها .. و على الأقل يعدلونها ويوسعونها بحيث تشمل هذه القراءات السبعية المتعددة .. ويجيزون النصب — دون ضعف — كما يجيزون الرفع وإن كان الرفع أكثر !

ماذا على شيخنا سيبويه —رحمه الله — لو فعل ذلك .. وأعفى نفسه من الحرج بوضع قاعدة نحويةتصطدم بالقرآن الكريم في أعلى قراءاته .. وهي القراءة السبعية ؟ ليته فعل ... ولكنه لم يفعل مع الأسف الشديد .

(ب) ومن ذلك [1] قوله تعالى : «يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك »[2] وقوله جل شأنه : « أولئك هم خيرالبرية» [3]

قرأ نافع بتحقيق الهمزة في الكلمتين معا (النبيءوالبريئة)وهومن القراء السبعة وبه بدأ ابن مجاهد حيثكانت قراءته أوثق القراءات في نظرهلأنه قرأ على سبعين من التابعين ، ولكن سيبويه— رحمه الله — لا يبالي بذلك ويصف هذه القراءة بالقلة والرداءة [4] .

هذا إلى أنتحقيق الهمزة وتخفيفها كلاهما لهجة واردة عن العرب الفصحاء . .وأكثر من هذا أن التحقيق أدخل في باب اللغة من التخفيف ، وفي هذا يقول العلامة الرضي : « والتحقيقهو الأصل كسائر الحرو ، والتخفيف استحسان » .

وإذا لم يكن هذا ولاذاك فالقرآن وحده الحجة البالغةعلى جميع اللغات . . والقراءة سنة متبعة . . ولولا ذلك ما تكلفت قريش نبرالهمزة وتحقيقها في القرآن الكريم، وآية ذلك أن الإمام علياكرم الله وجهه قال : « نزلالقرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر ،ولولاأنجبرائيل عليه السلامنزلبالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ماهمزنا »[5] فانظر إلى الإمام علي يقرر نزول الوحي بقراءة الهمزة ويخضع لها مع أنها تخالف لهجته الخاصة . . ثم انظر إلى سيبويه يصفها بالرداءة مع أنه يعلم اليقين أنها واردة وأن القراءة سنة متبعة هذه واحدة . وأخرى سلفت . وهناك أخريات . . وأخريات مما لا أطيل بذكره الآن [6]

---

(١) انظر ص ٧٠ فما بعدها من كتاب (سيبويه والقراءات) (٢) التحريم

(٣) سورة البينة آية رقم (٧) وقبلها جاءت كلمة (البرية) كذلك في آية رقم (٦) من نفس السورة .

(٤) انظر الكتاب ٢ - ٢,١٧٠ - ١٦٣ ط بولاق (٥) راجع شرح الشافية ٣ . ٣٢

(٦) راجع المبحث الثاني كله ابتداء من ص ٤٠ فما بعدها من كتابنا (سيبويه والقراءات) .

ومنها (تاءات البزى) المشهورة عند جميع القراء . وعددها واحد وثلاثون موضعا فى القرآن الكريم . وقد تعرض سيبويه لبعضها فمنعها منعا باتا مع أنها جميعا من القراءات السبعية المحكمة [1] .

ثالثا : من نماذج التأويل [2]

(أ) قال تعالى فى سورة النور [3] : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . الإعراب الفطرى الذى يتبادر إلى الذهن لأول وهلة هو أن تعرب (الزانية) مبتدأ وخبره جملة (فاجلدوا) .. وبه قال بعض العلماء الأجلاء من أمثال المبرد والزجاج والزمخشرى وأبى زكريا الفراء .

غير أن سيبويه — رحمه الله — لجأ إلى التأويل البعيد حينما وقفت له الصنعة بالمرصاد فقال : إن خبر (الزانية) محذوف تقديره (فيما يتلى عليك الزانية والزانى — أو فيما يتلى عليكم حكم الزانية والزانى)..أما جملة (فاجلدوا) فأعربها مستأنفة .. ولا يصح أن تكون خبرا فى نظره لا لشيء إلا لأنها خالفت القاعدة النحوية البصرية .

فانظر إليه رحمه الله ..كيف تتحكم فيه الصنعة فيرفض الإعراب الذى يساير الفطرة كما يساير طبيعة اللغة العربية السمحة ..فماذا عليه لو أجاز هذا الإعراب كما أجازه العلماء الأجلاء من المدارس النحوية الكبرى جميعا؟ وما الذى يضيره أو يضير اللغة العربية حينما يوسع هذه القاعدة الناقصة .. فيجعلها تشمل هذا الخبر كما تشمل غيره من الأخبار ؟ لو فعل ذلك لأراح نفسه وأراح الناس من بعده .. من أمثال هذا التأويل المتكلف ، وذلك التقدير الذى يفسد الذوق العربى السليم .. ولكن هيهات أن يمس القاعدة المقدسة مهما كانت مخالفة للكثير من الآيات القرآنية المماثلة [4] . ومن الشعر العربى الفصيح [5]

(ب) ومن التأويل المتكلف ما جاء فى قوله : قوله تعالى : «إذا السماء انشقت» — وقوله جل شأنه : «وان أحد من المشركين استجارك» [6]

إذا أردت الفطرة السليمة فى الإعراب واستلهمت الحس اللغوى المرهف أعربت كلمة (السماء) مبتدأ وما بعدها خبر لها — وكذلك الحال فى الآية الثانية .. وبه قال كثير من

---

(١) انظر ص ٥٣ فما بعدها من نفس المصدر . (٢) راجع ص ١٧٠ فما بعدها من المصدر السابق .

(٣) آية رقم ٢

(٤) من الآيات المماثلة قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما» المائدة ٣٨ — وقوله عز وجل: «واللذان يأتيانها منكم فآذوهما» النساء — ١٦ .

(٥) من ذلك قال الشاعر .

وقائلة خولان فانكح فتاتهم وأكرومة الحيين خلو كما هيا

(٦) التوبة ، آية .

العلماء الاجلاء[1] ولكن سيبويه — رحمه الله — يرفض هذا الإعراب الفطرى الجميل ويلجأ إلى التأويل والتقدير، ويتبعه فى ذلك سائر البصريين والمتبصرين إلى يومنا هذا فى هذا العصر الحديث .: ويقولون : إن كلمة (السماء) فاعل لفعل محذوف تقديره (انشقت) وكذلك كلمة (أحد) فاعل لفعل محذوف تقديره (استجارك) .: وبناء على هذا وذاك يكون التقدير فى الآيتين هكذا :—(انشقت السماء انشقت) — (وان استجارك أحد من المشركين استجار) . وأكثر الظن أننا لسنا بحاجة إلى التعقيب على هذا التقدير المتكلف ذلك الذى يخرج الآية الكريمة عن سماحتها وسلاستها .. ويشوه الأسلوب القرآنى الرفيع .

ويلاحظ أن باب التأويل داخل فى التعارض مع القواعد .. ولكن سيبويه — رحمه الله — يلوى أعناق الآيات .. إلى أن يخضعها للقواعد البصرية ». أما القسم الذى لا يقبل الخضوع للتأويل فإنه يقف منه موقف المعارضة الصريحة ، أو المعارضة الخفية —كما سلف به البيان — غير أن الكل داخل فى باب التعارض مع القواعد — كما ترى :

والآن آن لنا أن نقتضب الحديث اقتضابا، ونكف عن ذكر النماذج للقضية الرابعة وهى (موافقة الكتاب للكتاب) .. ذلك أن معظم الآيات الواردة [2] فى كتاب سيبويه من هذا القبيل .: فلا تحتاج إلى بحث أو تنقيب .. ومن أراد شيئا من النماذج المختارة فعليه بالمبحث الرابع من كتاب (سيبويه والقراءات) [3] .

أثر سيبويه فى المخالفين :

وكان من الطبيعى أن يتأثر النحاة بما جاء فى كتاب سيبويه .. وأن يقتدوا به (حذوك الكف بالكف) .. إلا من رحم ربك ..وقليل ما هم .: ولنا مع هؤلاء النحاة حديث يطول نرجئه إلى حين . . غير أننا نشير إشارة عابرة إلى (المزايدات) التى زادوها على سيبويه فى قراءة سبعية محكمة [4] وهى قراءة حمزة فى سورة النساء: « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام » بخفض الأرحام ،حيث وصفوها بالقبح والضعف واللحن والخطأ .. وأكثر من هذا وذاك أنهم حرّموا القراءة بها تحريما قاطعا .. ولهذا قال المبرد : « لو أنى صليت خلف إمام يقرؤها لقطعت صلاتى وحملت نعلى ومضيت » .

---

(١) من أمثال الأخفش وأبى زكريا الفراء والكوفيين بوجه عام .

(٢) احصاها بعض الباحثين فوصل بها إلى (٣٧٢) آية ، وهى تمثل جميع القضايا الأربع التى عالجناها فى كتابنا (سيبويه والقراءات)

(٣) ص ١٨١ فما بعدها . وانظر الكتاب ١ / ٣٧ فما بعدها و ١ / ٤٦ فما بعدها و ٢ / ١٦٥، و١ / ١٢٠ فما بعدها وغيرها كثير وكثير . طبع بولاق .

(٤) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (الدفاع عن القرآن) توزيع دار المعارف بمصر .

لا لشيء إلا لأنها خالفت القاعدة النحوية الناقصة .. ماذا عليهم لو عدلوا هذه القاعدة كما عدلها الإمام التقي الورع الحصيف.. ابن مالك الحياني حيث قال في الألفية المشهورة:

وعود خافض لدى عطف على
ضمير خفض لازما قد جعلا
وليس عندي لازما إذ قد أتى
في النظم والنثر الصحيح مثبتا

حياك الله يا ابن مالك .. حياك الله أيها الإمام العظيم .. حياك الله أيها النحوي الغيور على القرآن الكريم ، وقراءاته السبعية المحكمة.

هذا إلى أنني لا أتهم هؤلاء النحاة .. كما أنني لا أتهم[2] سيبويه في دين أو خلق .. فقد كان رحمه الله — مثالا عاليا لهذا وذاك .. ولكنها العصبية المذهبية . . والتمسك بالقواعد النحوية الناقصة .. وكان جديرا به ، وبغيره من النحاة الأوائل أن يتخذوا القرآن الكريم منبعهم الذي لا يغيض ، ومصدرهم الأول في كل تقعيد .. ومن هنا كانت دعوتنا الحارة لا تخاذ الخطوات الجادة في إخراج (النحو القرآني) .. وأكرر وأضغط في التكرار على (النحو القرآني)

نداء ورجاء لإصلاح نحونا الجميل :

لعلي لا أكون متعصبا لتخصصي حين أقول : إن النحو العربي من ألذ العلوم وأجملها .. ولكن تشويه بعض الشوائب وليتنا نستطيع أن نخلصه من هذه الشوائب الدخيلة عليه ، المتطفلة على موائده الشهية اللذيذه الممتعة .-. وتتمثل هذه الشوائب في آثار الفلسفية الإغريقية ظنا منهم أن النحو منطق دائما وأبدا .. ونسوا — أو تناسوا — أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تخضع دائما للمنطق العقلي .. وإنما لها منطقها الخاص الذي قد يتفق مع المنطق العقلي ، وقد يختلف معه في بعض الأحايين (١)

ومن هنا كانت الحاجه ماسه إلى شيء من الإصلاح المتعقل .. وإذا كان الإصلاح الجذري[3] للنحو العربي قد عزعلينا .. فلن يعز علينا — مجتمعين — مثل هذا الإصلاح الجزئي .. ذلك الذي يتمثل في (حركة التنقية والانتقاء) بحيث نبدأ بتنقية النحو من جميع الشوائب الفلسفية التي علقت به .. ثم نقوم بحركة الانتقاء ، واختيار أيسر الآراء على الدارسين والمتعلمين .. شريطة أن يكون هذا التيسير قائما على أساس من الأصالة في اختيار الآراء من أقوال النحاة القدماء دون تعصب لشخص .. أو مذهب على مذهب .. ونكتفي بهذه الإشارة الخاطفة إلى الإصلاح .

وللإصلاح لدينا حديث طويل نرجئه إلى حين ، ولكن لنابعض التوصيات ..وإليك البيان :

(١) باب (عطف النسق)
(٢) انظر تفصيل ذلك في كتابنا (أبو زكريا الفراء) ص ٤٠٣ فما بعدها - توزيع دار المعارف بمصر .
(٣) راجع ص ٤٠٩ فما بعدها من المصدر السابق بعنوان (المنهج اللغوي السليم)

التوصيات التى يهدف إليها هـذا البحث تتركز فيما يأتى :

١ ــ الاقتناع الحقيقى بأن القداسة للشواهد القرآنية .. وليست للقواعد النحوية :
ويترتب على ذلك :

٢ ــ تعديل القواعد على أساس الوارد من الشواهد :

٣ ــ الإصلاح الجزئى .. إذا تعذر الإصلاح الكلى الجذرى[1]

٤ ــ تضافر الجهود لإخراج (النحو القرآنى) وتعميمه فى جميع البلاد العربية والإسلامية ، والاستعانه فى ذلك بكل الوسائل المتاحة علميا ودينيا واجتماعيا .. وتتمثل هذه الوسائل فيما يلى :

(أ) فى المجامع اللغوية المتعددة .

(ب) وفى الجامعات والمعاهد العليا تلك التى تعنى بالدراسات العربية والإسلامية .

(جـ) وفى جامعة الدول العربية لما لها من صلات :

(د) وفى المؤتمرات الإسلامية ومراكزها الفعالة .

(هـ) وفى وسائل الإعلام باختلاف ألوانها وأنشطتها .

(و) وأخيرا الاستعانة بالحكومات الإسلامية المؤمنة لتقرير هذا النحو فى مراحل التعليم المختلفة ؛ ليتسنى له البقاء والخلود .. بعد الظهور إلى حيز الوجود.. وإلا أصبح حبرا على ورق ، وضاع فى غمار الحياة .. وكأنه صيحة فى واد أو نفخة فى رماد ، ومهما يكن من شيء فإننى راض عن النتائج..حيث إننى شاركت ونبهت . . ومازلت أنادى وأصيح..ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

(وبعد) فأود أن تحكموا بينى وبين سيبويه العظيم .. هل ظلمته .. أو تجنيت عليه ؟

ما أظن هذا ولا ذاك .. فتلك نتيجة البحث المنهجى الصرف .. وقد حكمنا عليه بما رأيناه واستخرجناه من كتابه هو .. وحملناه أوزار ما صنعت يداه ــ إن جاز لنا أن نحمل الباحثين المجتهدين شيئا من الأوزار ــ وقديما قالوا فى الأمثال العريقة : «يداك أوكتا وفوك نفخ» :

على أننى لم يكن من أهدافى قط أن أنال من شيخنا الكبير سيبويه إمام النحاة .. أو أغض من شأنه فى قليل أو كثير .. بل على العكس ــ كما يقول أحد الزملاء الفضلاء العقلاء ــ أننى بذلك دافعت عن سيبويه دفاعا مجيدا .. حيث أبعدت عنه شبهة الزندقة أو الإلحاد .. ونسبت هذا الصنيع فى المعارضات إلى النزعة النحوية من العصبية

(١) نفس المصدر .

المذهبية، والتمسك بالقواعد إلى حد كبير. والهدف الأساسي عندي هو التنبيه إلى بعض الثغرات التي نفذ منها الفساد إلى النحو العربي ثم العمل على سد هذه الثغرات .. ومحاولة الإصلاح بالقدر المستطاع .. ونتمنى أن يتحقق شيء من ذلك . وألا نقول مقالة الشاعر الأول :

« وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟! »

والآن بعد مئات السنين .. بعد ألف سنة أو تزيد .. يفكر العالم في تكريم سيبويه بإقامة مهرجان له في إيران .. وإذا أردنا أن نكرمه حق التكريم ينبغي علينا أن نعكف على كتابه الخالد.وندرسه دراسة جادة واعية ناضجة متعمقة .. ونستخرج منه الكنوز الدفينة التي احتواها .. ثم ننظر إليها في ضوء مناهج البحث الحديث .. ونقف منها موقف الباحث لا موقف المناظر .. وفرق كبير كبير بين الموقفين كما تعلمون .

هكذا يكون تكريم سيبويه العملاق .. وهكذا يكون الانتفاع بعلمه الغزير .. في كتابه الفريد ، ولا يتأتى ذلك إلا بالتعمق العميق في دراسة الكتاب ..

ومعظم الباحثين في عصرنا الحديث يهابونه هيبة شديدة ، ولا يكادون يقتربون منه ولهذا أهمل أو كاد في كثير من الجامعات الحديثة .

أما في العصر القديم فإنهم كانوا يقدرونه بطريقتهم الخاصة .. ومن بينها الحفظ والاستظهار ، على نحو ما كان يفعل القدماء في المغرب والأندلس .. وعلى رأسهم حمدون النحوي(١) ذلك الذي قالوا عنه : إنه أول من حفظ كتاب سيبويه عن ظهر قلب .. من الغلاف إلى الغلاف ، أو من الألف إلى الياء. كما يقولون .. فهنيئا له هذه الأولية .. وإن كنا ننظر إليها بمنظار آخر ، ونقول كما قال بعض الحكماء : « إن هذا العمل الشاق لم يضف إلى النحو جديدا أكثر من أنه زاد نسخة من نسخ الكتاب .. فأصبح (حمدون) كتابا يمشي على قدمين » .

وفي النهاية : أعود فأقول : إننا نقدر سيبويه كل التقدير .. ولكننا لا نقدسه أي تقديس . وفرق كبير بين التقدير والتقديس .

احمد مكي الانصاري

---

(١) توفي نحو سنة ٢٠٠ هـ